الهندسة المعرفية لعلم الكلام عند ابن خلدون و أبعادها الواقعية

د . صالح نعمان
جامعة الأمير عبد القادر .قسنطينة.

تمهيد

إن أهمية وإحيائية تراثنا الفكري والعلمي تكمن في ارتباطه الشديد بالمصدر الأساسي الثابت والخالد لنظامنا المعرفي الإسلامي ألا و هو الوحي المتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وهذا ما يجعل البعد الديني هو السمة الرئيسية لتراثنا و على رأسه الفكر الخلدوني.

والمقصود من الهندسة المعرفية لعلم الكلام عند ابن خلدون و أبعادها الواقعية هو محاولة رسم أضلاع علم الكلام عنده بشكل يمكننا من معرفة موقعه في النظام المعرفي الخلدوني و النظام الكلامي الإسلامي التقليدي، ثم علاقة ذلك بالواقع.

حيث أن تعبير الهندسة المعرفية يرمي إلى التأكيد على عدم حصر علم الكلام عند ابن خلدون في الجانب التاريخي والتصنيفي لهذا العلم الذين يعدان أحد أضلاعه المعرفية، بل لتدليل كلية الكلام عنده بوصفه نظاما معرفيا، أي شموليته كل الأضلاع المعرفية و أبعادها الاجتماعية و النفسية.

وأهم الأضلاع المعرفية لعلم ما: الموضوع، الغاية، المسائل، اللغة،المنهج ومبادئ ذلك العلم.

-فهل يعتبر علم الكلام عند ابن خلدون من حيث الأضلاع المعرفية و مقتضياتها، متميزا عن غيره؟

- ثم إلى أي مدى يمكننا استثمار هذه الهندسة المعرفية الكلامية في حركة التجديد الكلامي لمواجهة التحديات المعاصرة ؟

مع العلم أن الكثير من الباحثين يرى أن ابن خلدون أنهى مهمة علم الكلام زمنيا و معرفيا عند حدود علم الكلام الأشعري قبل عصره.

للإجابة عن هذه الإشكاليات نتناول بالدراسة العناصر الآتية:

أولا:ماهية علم الكلام أو أضلاعه المعرفية

أ- التعريف الموضوعي الغائي لعلم الكلام

ب-التواصل بين العلوم

ج -قيمة علم الكلام و أهميته عند ابن خلدون

ثانيا: مهمة علم الكلم اليوم.

أولا: ماهية علم الكلام أو أضلاعه المعرفية

هل يتعلق علم الكلام بكل التعاليم الدينية أم بقسمٍ خاص من منظومته الفكرية؟.

عرف العلماء المسلمون علم الكلام بتعريفات متعددة تحدد ماهيته من حيث الموضوع والمسائل والمنهج والغاية، وتدل على المنحى العام الذي سيقت فيه

أبوابه ومسائله وعلى الغرض الأصلي الذي تهدف إلى تحقيقه موضوعاته وأدلته؛وقد اصطبغ كلٌ منها بلون صناعة صاحبه أو منظومته الفكرية التي ينتمي إليها، وهو ما يصدق على ابن خلدون، ومن خلال تحليل تعريفه لعلم الكلام وموقفه منه يمكن أن نحدد ماهية هذا العلم و نكتشف أضلاعه المعرفية.

فلكل علم نظامه الهندسي المتكوّن من أضلاعه المختلفة كالمنهج واللغة والتوجهات والغاية والموضوع والمبادئ والمسائل.

إن النظرة الهندسية للمعرفة تتفاوت عن النظرة الذرية (القضيبّة)، في أنها تستلزم القول بالتغيّر في جميع أضلاع النظام الهندسي إذا ما حصل تغيير في أحد الأضلاع. ذلك أن الذي يمنحها(المعرفة) صفة العلم، هو النظام الهندسي الذي يجمعها.

لقد عرف ابن خلدون (732 – 808) علم الكلام بأنه: « علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة».1 و يقول: «موضوع علم الكلام . عند أهله . إنما هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع، من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية فترفع البدع وتزول الشكوك والشبه عن تلك العقائد».2

وما نلاحظه على هذا التعريف أن علم الكلام ذو نزعة واقعية ومنهج تطبيقي وذلك من خلال استعراض خصائصه الرئيسة التي ساهمت في ترسيم الأضلاع المعرفية لهذا العلم.

---

1 . عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة، مراجعة لجنة من العلماء، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط.5، 1402هـ 1982م، ص 458.

2 . المرجع نفسه، ص 441.

أ – التعريف الموضوعي الغائي لعلم الكلام

وتوجد طريقتان متداولتان لتعريف علمٍ ما في الغالب عند العلماء المسلمين: التعريف الموضوعي للعلم، والتعريف الغائي، وذلك لأن ما يوحِّدُ مسائل علمٍ ما إما موضوعه وإما غايته، وجهة نظر علماء المنطق العلم الذي يبحث في تحصيل المعرفة يتم تعريفه حسب الموضوع، وأما العلم ذو الهوية الآلية والدفاعية فيعرّفُ حسب الهدف ووظائفه في الوصول إلى الهدف.

لكن تعريف ابن خلدون حسب ما تقدم عرف غائي موضوعي رغم أن التعريف الاصطلاح الذي أورده المعروف عنه هو تعريفٌ غائيٌ أساساً، بناءً على التصور الدفاعي للكلام واعتباره وسيلة، وتُتضح ماهية هذا العلم عن طريق بيان غايته وهدفه إذ هو يتضمن مما يتضمنه (الحجاج عن العقائد الإيمانية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات) وهما غايتان دفاعيتان لعلم الكلام.إلا أنه لم يغفل ذكر موضوعه الذي -هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع- قبل أن يورد ذلك التعريف الاصطلاحي الغائي.

وهذه علامة تميّز و امتياز عنده عن كثير من المتكلمين و المشتغلين بعلم الكلام الذين عرفوه إما بالغاية أو بالموضوع فقط.

- أبعاد الغاية الدفاعية لعلم الكلام

إن الغاية الدفاعية لعلم الكلام تقتضي تتبع واستقراء الآراء والأعمال المنحرفة التي يفرزها الواقع لتقويمها وتصحيحها و تقصي شبه الخصوم أصحاب الملل والنحل «فترفع البدع وتزول الشكوك والشبه عن تلك العقائد»؛[1]

لقد تمثل دوره من النشأة إلى الانحطاط في مهمتين أساسيتين: أولهما الدفاع عن العقيدة الإسلامية، وثانيهما ترقية الإيمان من التقليد و تحليته باليقين، وهو

---

1 ـ ابن خلدون: المرجع نفسه، ص 441.

ما بيّنه التهانوي في قوله: «وفائدته الترقي من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان، وإرشاد المسترشدين بإيضاح الحجة لهم، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة عليهم، وحفظ قواعد الدين عن أن تزلزلها شبه المبطلين وأن تبتنى عليه العلوم الشرعية فإنه أساسها ... وغاية هذه الأمور كلها الفوز بسعادة الدارين».1

و المهمتان الدفاع والترقية متكاملتان متداخلتان لا تنفكان عن بعضهما البعض، وتتحققان بمجموعة من الوسائل تعد وظائف لعلم العقيدة من أهمها أربع: الشرح والبيان لغرض الفهم والإصلاح، وإثبات العقائد للترقية والإيقان، ورد الشبهات للصيانة، والهجوم للحصانة.

وذلك بثلاث وظائف أساسية:

1-تصحيح العقائد الدينية.

2-إثبات التعاليم الدينية.

3-دفع الآراء المعارضة.

1 -تصحيح العقائد الدينية:

لما يطرأ عليها من انحرافات بسبب بدع المبتدعين و شبه الخصوم على مستوى التصور و السلوك وهو ما قصده ابن خلدون في تعريفه بالرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات، فتصحيح العقائد الدينية وبيان ما الذي هو من أصول الدين هي من أهم وظائف علم الكلام، وهذا يكمن في الحقيقة التاريخية التي تقول أن الفهم الصحيح للفكر الديني، والاحتراز من الالتقاط الناشئ عن التفسيرات غير المنضبطة للعقائد الدينية، هي حاجة دائمة، والتي لا

1 . التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، ص 30.

مفرّ لذهن ولغة المخاطبين منها، ويقوم المتكلمون برفع هذا الاحتياج على أساس القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.1

ويكون ذلك بشرح مفهوم الإيمان و مقتضياته لإثباته وتثبيته في الأذهان والقلوب، ونصرة العقيدة الإسلامية وصيانتها من المفاهيم المنحرفة الحادثة في المجتمع، لأن انحراف المفاهيم يؤدي إلى انحراف التصور المؤدي إلى انحراف السلوك الاجتماعي والسياسي في المجتمع الذي تجلى في سياسة الاستبداد والظلم والقتل، ومظاهر الفسق والبغي، وتعليل ذلك بالقدر، واقتصار الإيمان على التصديق دون العمل، فنشأ الصراع والتطاحن المذهبي والعسكري،و هو ما قام به ابن خلدون مباشرة بعد تعريف علم الكلام.2

كما قام المسلمون برصد ما حدث من انحرافات عن العقيدة ومعالجة السلوك المنحرف عن الدين في المجتمع الإسلامي، الناجم عن ذلك الانحراف العقدي، كمظاهر الشرك التي تفشت في المجتمع عن طريق التصوف المنحرف، وما تسرب من الديانات المخالفة للإسلام، وظواهر البغي والفسوق وشرب الخمر، الناتجة عن انحراف مفهوم القضاء والقدر، وضعف الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر وترتب عنه ضعف الالتزام بالشريعة والإخلاص في العمل.

وبالنظر إلى الاختلافات العميقة في فهم الفكر الديني في كل عصر و ما يفد على ثقافة الأمة من تأثيرات أجنبية و تطور في الفهم، يصبح القيام بهذا الواجب ذا أهمية قصوى؛ و المسلمون في كل زمان و مكان في مواجهة ادعاءات متعددة حول إعادة بناء وإحياء الدين و هذا واضح من الانتقادات

---

1 -أحمد قراملكي:"الهوية الدفاعية لعلم الكلام"، مجلة المحجة،المعهد الإسلامي للمعارف الحكمية،بيروت،ع1،تشرين الأول2001م رجب1422هـ ص.148.

2 -المقدمة، ص.452-462.

والتصويبات التي وجهها ابن خلدون إلى انحرافات و أخطاء كل من المتكلمين والمتصوفة في هذا المقام.1

فوظيفة و غاية التصحيح غاية خادمة للغاية القصوى لعلم العقيدة وهي الدفاع، وأحد وسائله الأساسية مهمتها وغرضها عرض العقيدة والدين الإسلامي وإصلاح ما دخله من انحراف.

ولأهمية هذه الوظيفة وخطورتها جعلها، عالمنا التونسي الثاني شيخ الإسلام الإمام الأكبر الطاهر بن عاشور، أسّ الوظائف متضمنة لها جميعا في مصطلحين: «التفصيل والتعليل»، إذ قال: «قد أحاط الإسلام إصلاح العقيدة ودوام إصلاحها بأمرين عظيمين هما: التفصيل والتعليل؛ فأما التفصيل: فهو في أمور ثلاث:

أولها بتمام الإيضاح لسائر المسلمين، وبإعلان فضائح الضالين في العقيدة على اختلاف ضلالهم، والإغلاظ عليهم، وبسد ذرائع الشرك واجتناب عروقهم ...

وأما التعليل فذلك باستدعاء العقول إلى الاستدلال على وجود الله، وعلى صفاته التي دل عليها تنزيهه، وأعظم ذلك الاستدعاء إلى النظر في النفس وهو أصل الحكمة، فالقرآن يكرر الدعوة للنظر ... وكذلك الآثار الصحيحة، وبذلك قال علماؤنا أن أول الواجبات على المكلف معرفة الله تعالى ... وترتب على ذلك اختلاف علماء الكلام في صحة إيمان المقلد ...»2 . و هما الحجاج والرد عند ابن خلدون.

---

1 - المرجع نفسه،ص466-467 و 495-496.

2 . محمد الطاهر بن عاشور: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص 49 – 50.

2- إثبات التعاليم الدينية:

ببيان صحتها لترقية الإيمان و تحصين المؤمنين من الشكوك والطعون بالحجاج عن العقائد الإيمانية لإثباتها ونصرتها.

لما ضعفت روح التهيب عند المسلمين لضعف إيمانهم عما كان عليه في صدر الإسلام، ولقوة وتنوع التحديات الداخلية والخارجية التي واجهتهم، ولما كان الكثير من أصحاب هذه التحديات يريدون الرجوع إلى قضايا تستند على العقل ويستبعدون الدليل النقلي، إما لكونه لم يكفهم في الإقناع لتفلسف عقولهم أو لضعف إيمانهم أو للاثنين معا، وإما لعدم الإيمان به أصلا لعدم معرفتهم الإسلام وعدم اعتناقه أو لعداوتهم ومحاربتهم له.

لذلك كله كان لابد من إثبات العقائد الإيمانية لإرشاد المسترشدين من المسلمين وغير المسلمين بإيضاح الحجة لهم، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة عليه.

فاضطر ذلك المتصدين لهذه التحديات من المسلمين أن يؤلفوا الأدلة العقلية على حقائق العقيدة الإسلامية مستمدة من الأدلة النقلية أو الفلسفة اليونانية، فدخلوا بذلك في منهجهم وسلكوا سبلهم وخاطبوهم بعقلياتهم.

و لهذا قال ابن خلدون «و المتكلمون إنما دعاهم إلى ذلك كلام أهل الإلحاد في معارضات العقائد السلفية بالبدع النظرية فاحتاجوا إلى الرد عليهم من جنس معارضاتهم واستدعى ذلك الحجج النظرية و محاذاة العقائد السلفية بها».1 «وما تحدث فيه المتكلمون من إقامة الحجج فليس بحثا عن الحق فيها... بل إنما التماس حجة عقلية تعضد عقائد الإيمان و مذاهب السلف فيها».2

---

1 -المرج نفسه، ص496.

2 -المقدمة:ص.495.

3- دفع الآراء المعارضة:

دفع شبه الخصوم عنها و نقض وتزييف آرائهم ومعتقداتهم و المتمثلة في ما تبثه من سموم فكرية اعتقاديه وشبهات في المجتمع الإسلامي، وهو ما عناه مفكرنا بـ (دفع الشبه) فتزول الشكوك.

فهذا التوجه النقدي التتبعي، الذي جعل علم العقيدة يترصد كل فكر وسلوك منحرف عن حقيقة الدين الإسلامي لعلاجه أو صده أو تحصين كل إيمان وسلوك قويم، طبع علم العقيدة بطابع الواقعية، فكان علما واقعيا بغايته الدفاعية هذه.

هذا الجانب الدفاعي يعد من أهم أهداف علم العقيدة من عصر النشأة إلى يومنا هذا، وذلك راجع للصبغة الواقعية التي يصطبغ بها، رغم الصورة النظرية التي علقت به في العصور المتأخرة، إذ كانت البيئة الإسلامية في عصر النشأة تموج بتحديات الملل والنحل الضالة، والعقائد الباطلة، والفلسفات المناوئة على اختلاف أنواعها وتعدد مصادرها، وتنوع أساليبها السرية والعلانية.

وقد بيّن هذه الأهمية لهذا الجانب الدفاعي الشيخ محي الدين بن عربي (560-638هـ) في الفتحات قائلا: «وعلماء هذا العلم (علم الكلام) رضي الله عنهم ما وضعوه وصنفوا فيه ما صنفوا ليثبتوا في أنفسهم العلم بالله، وإنما وضعوه إرداعا للخصوم الذين جحدوا الإله أو الصفات أو بعض الصفات أو الرسالة أو رسالة محمد ﷺ خاصة، أو حدوث العالم، أو الإعادة إلى هذه الأجسام بعد الموت أو الحشر والنشر وما يتعلق بهذا الصنف، وكانوا كافرين بالقرآن مكذبين به جاحدين له، فطلب علماء الكلام إقامة الأدلة عليهم على الطريقة التي زعموا أنها أدلتهم إلى إبطال ما ادعينا صحته خاصة، حتى لا يشوبوا على العوام عقائدهم.

فمهما برز في ميدان المجادلة بدعي برز له أشعري أو من كان من أصحاب علم النظر»1.

وقد تجلى هذا الدور الدفاعي على مستوى التصدي للتحديات أو الشبهات،حيث عمد علم الكلام إلى رصد التحديات الخارجية المتمثلة في تحديات اليهود، والنصارى، والمجوس، والهنود، والفكر اليوناني، ومناهضتها، وكانت مهمة الرصد لمعرفة مضمونها، كالشبهات المتعلقة بالألوهية النبوة والمعاد، ومعرفة أهدافها المتمثلة في تسريبها إلى العقائد الإسلامية أو جر هذه العقيدة إليها، ومعرفة أساليبها المختلفة، كالوضع في الأحاديث، وتسريب الأخبار في التفسير الذي سمي فيما بعد بالإسرائيليات2 والنصرانيات3.

وكذلك الأسلوب الفلسفي القائم على الأدلة العقلية وقواعد المنطق الأرسطي الذي استعمله المسيحيون في شرح قضية الأقانيم، واستعمله المجوس في شرحهم لمبدإ الإثنينية، والديانات الهندية كالبراهمية في إثبات عقيدتهم وإنكار النبوة.

ومن الأساليب كذلك الأسلوب الذوقي الغنوصي الذي اتبعه غلاة الصوفية في نقض العقيدة الإسلامية، اعتمادا على الفلسفة الأفلاطونية المحدثة، والذي أدى إلى القول بوحدة الوجود والحلول وسقوط التكاليف الشرعية، وإنكار البعث، « و صار احتجاج أهل الكلام كأنه إنشاء لطلب الاعتداد بالدليل و ليس كذلك بل و إنما هو رد على الملحدين و المطلوب مفروض الصدق معلومه

---

1 . محي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، ج1، ص 35.

2 . انظر: محمد حسين الذهبي: الإسرائيليات في التفسير والحديث، ص 13 –34، و95 – 164؛ وجولدتزيهر: «العناصر الأفلاطونية المحدثة في الحديث» في التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، لعبد الرحمن بدوي، ص 218 – 241.

3 . محمد الأنور السنهوتي: مدخل نقدي لدراسة علم الكلام، ص 208.

وكذلك جاء المتأخرون من غلاة المتصوفة المتكلمين بالمواجد أيضا فخلطوا مسائل الفنين (علم الإلهيات و علم الكلام) بفنهم و جعلوا الكلام واحدا فيها كلها مثل كلامهم في النبوات و الإتحاد و الحلول و الوحدة و غير ذلك.»1

أما مناهضة التحديات فكانت بإيراد الحجج والأدلة المتعلقة بإثبات صحة العقيدة الإسلامية وأحقية الدين الإسلامي ورد شبهات الخصوم وتفنيد أدلتهم ونقض آرائهم.

ولقد نوه المستشرق دي بور بما بذله متكلموا الإسلام من كفاح مستميت في سبيل الدفاع عن الدين الإسلامي، منذ أول اتصالهم بالأمم الأجنبية وثقافتهم إذ يقول: «ومن الحق أن نسجل هنا للمسلمين كفاحهم المستميت في سبيل الدفاع عن حمى الدين، وهو كفاح لم تكن لهم الخيرة فيما تقلدوا من سلاحه، وإنما حملهم عليه الغاية التي أرادوا بلوغها.

ولم يكن للمسلمين بد من تفسير ظواهر الطبيعة، لا من حيث كونها فعلا للطبيعة ذاتها، بل من حيث كونها صادرة عن فعل الله الخالق، أكبر عقائد علم الكلام الإسلامي، لتكون شاهدا على رفض المسلمين للمذهب الفلسفي الوثني القائل بقدم العالم وبأفعال للطبيعة [من ذاتها]»2 .

ب - التواصل بين العلوم

وهذه الواقعية التطبيقية التي يبرزها ابن خلدون لعلم العقيدة ليست غريبة عنه، لكونه عالم اجتماع و مؤرخ إذ ينظر إلى هذا العلم نظرة واقعية، وأنه ذو نزعة توحيدية في النظر إلى العلوم.

---

1 -المقدمة، ص 496.

2 . دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، تحقيق و تعليق، محمد الهادي أبو ريدة، دار النهضة العربية، بيروت،1981، ص 119 – 121.

إذ يرى أن العلاقة بين العلوم تقوم على أصل العقيدة وأن العلم طريق لتحصيل الحقيقة الدينية والسعادة بها تفكرا وسلوكا (تطبيقا) ويتجلى ذلك من خلال التوكيد على التواصل والوحدة بين سائر العلوم الشرعية منها والمقتبسة وهو ما جعل علم العقيدة مرتبطا بالعلوم العملية كالفقه مما أبرز عمليته وواقعيته، ويدل على الخاصية التي يتميز بها الفكر الإسلامي التي طبعت علم العقيدة بالواقعية.

وهذا عكس ما يعتقده بعض المتكلمين لغاية تفكيك علم الكلام عن علمي الأخلاق والفقه وسائر العلوم الشرعية و الكونية أن متعلق علم الكلام ليس كل التعاليم الدينية، بل تتسع دائرته لتشمل التعاليم النظرية فقط، كالإيجي(ت 756هـ/ 1355م) الذي فصل بين علم الفقه وعلم العقيدة فجعل هذا الأخير علما نظريا لا صلة له بالعمل ومنهج التطبيق، حين قال: «والمراد بالعقائد ما يقصد فيه نفس الاعتقاد دون العمل»1 ، وهذا يدل على الانحراف الذي وقع فيه هذا العلم عند كثير من المتأخرين فاصطبغ بالصبغة التجريدية و ففقد الصبغة الواقعية العملية.

و تعود جذور هذا الاعتقاد إلى حصر الاهتمام بمقطع تاريخي معين من تاريخ الأفكار الكلامية، أو إلى الاكتفاء بمطالعة نصوص خاصة من المصادر الكلامية في الثقافة الإسلامية،2 و هو ما يصرّح به الفارابي(ت339هـ /950م):. قبل ابن خلدون، حيث يرى أنّ متعلق علم الكلام ليس فقط الآراء والاعتقادات الدينية النظرية، بل إن الأفعال الدينية، والوصايا والقيم الدينية، تقع أيضاً في إطار علم الكلام، وهو مكلف بالدفاع عن جميع الاعتقادات الدينية سواء الوصفية منها أم القيمية فيقول في تعريفه لعلم الكلام: «وصناعة الكلام ملكة يقتدر بها

---

1 ـ عضد الدين الإيجي: المواقف في علم الكلام ، ص 07.

2 – د. أحد قراملكي:"الهوية الدفاعية لعلم الكلام"،ص.140.

الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل، وهذه الصناعة تنقسم إلى جزأين أيضا، جزء في الآراء وجزء في الأفعال.»1 . كانت بعض التعاليم الدينية، في مقطع تاريخي معين، هي المسألة الرئيسية لعلم الكلام طبقاً للظروف التاريخية والشبهات التي طُرحت.

وابن خلدون يؤكد وحدة العلوم النقلية بقوله: «وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة لأن المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه، وعلى أبناء جنسه وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالإجماع أو بالإلحاق فلا بد من النظر بالكتاب ببيان ألفاظه أولا وهذا هو علم التفسير، ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبي ﷺ الذي جاء به من عند الله واختلاف روايات القراء في قراءته وهذا علم القراءات، ثم بإسناد السنة إلى أصحابها والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هي علوم الحديث، ثم لا بد من استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط وهذا هو أصول الفقه، وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين وهذا هو الفقه، ثم إن التكاليف منها بدني ومنها قلبي وهو المختص بالإيمان وما يجب أن يعتقد مما لا يعتقد وهذه هي العقائد الإيمانية في الذات والصفات وأمور الحشر والنعيم والعذاب والقدر، والحجاج عن هذه بالأدلة العقلية هو علم الكلام، ثم النظر في القرآن والحديث لا بد أن تتقدمه العلوم اللسانية لأنه متوقف عليها وهي أصناف، فمنهم علم اللغة، وعلم النحو، وعلم البيان، وعلم الأدب حسبما نتكلم عليها كلها»2 .

---

1 . الفارابي،أبو نصر: إحصاء العلوم، ص 131 – 132.

2 . ابن خلدون: المرجع السابق، 435 – 436.

فابن خلدون جعل محور العلوم الإسلامية الإنسان المكلف الذي يتحتم عليه معرفة أحكام الله تعالى المفروضة عليه حتى يستقيم تصوره ويعتدل سلوكه وذلك لأن التوحيد كما يقول: «ليس هو الإيمان الذي هو تصديق حكمي فإن ذلك من حديث النفس، وإنما الكمال فيه حصول صلة منه تتكيف بها النفس، كما أن المطلوب من الأعمال والعبادات أيضا حصول ملكة الطاعة والانقياد وتفريغ القلب عن شواغل ما سوى المعبود حتى ينقلب المريد السالك ربانيا، والفرق بين الحال والعلم في العقائد فرق بين القول والاتصاف»1 ، فكان المطلوب إذن «في التكاليف كلها حصول ملكة راسخة في النفس يحصل عنها علم اضطراري للنفس هو التوحيد وهو العقيدة الإيمانية وهو الذي تحصل به السعادة وأن ذلك سواء في التكاليف القلبية والبدنية»2 ولهذا أسمى طاش كبرى زادة(ت 962هـ/1458م) العلوم الإسلامية علوما اعتقادية فهي تقوم كلها على أساس أصول الدين، فثبوت العقيدة في النفوس وحصانتها من شبه الخصوم يصلح العمل أو كما قال ابن خلدون يتحقق الاتصاف، فنفهم من ذلك أن «الإيمان الذي هو أصل التكاليف وينبوعها هو بهذه المثابة ذو مراتب أولها التصديق القلبي الموافق للسان (حصول التصور) وأعلاها حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبي ما يتبعه من العمل (أي مطابقة السلوك للتصور) مستولية على القلب فيستتبع الجوارح وتندرج في طاعتها جميع التصرفات حتى تنخرط الأفعال كلها في طاعة ذلك التصديق الإيماني وهذا أرفع مراتب الإيمان وهو الكامل الذي لا يفارق المؤمن معه صغيرة ولا كبيرة، إذ حصول

1 . ابن خلدون: المرجع السابق، ص 460.

2 . نفس المرجع، ص 461.

الملكة ورسوخها مانع من الانحراف عن مناهجه طرفة عين قال ﷺ (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)1 ».2

و معنى هذا أولا: أن ابن خلدون جعل العقائد الإيمانية موضوع المعرفة والدفاع بالتحصيل والإثبات و النصرة و هذا يقتضي من عالم الكلام نصرة تعاليم الدين الإسلامي كلها و تزييف كل ما يخلفها من الآراء و الأفعال.

وثانيا: أن حصول العلم والاتصاف مما لا يتحقق إلاّ باجتماع كل العلوم النقلية النظرية والعملية منها، من ثم نفهم أن العلوم العملية كعلم الفقه مثلا ما هي إلاّ امتداد تطبيقي للعلوم النظرية.

بل حتى العلوم الطبيعية لها دور في ذلك و هو تأييد أصول الدين وفروعه، إذ يستدل بحقائقها المتكلمون على العقيدة و الدين الإسلامي عموما3 إلى درجة التباسها بموضوع ومسائل علم الكلام كما بيّن ابن خلدون«وإنما جاء الإلباس من اتخاذ المطالب عند الاستدلال و صار احتجاج أهل الكلام كأنه إنشاء لطلب الاعتداد بالدليل و ليس كذلك بل و إنما هو رد على الملحدين والمطلوب مفروض الصدق معلومه.» و يؤكد مبرر التجاء المتكلمين إلى ذلك-عند فيلسوفنا- لدرجة انحرافهم عن منهج العلم هو وظيفة العلم و غايته و دوره التأييدي وهما الدفاع عن الدين لتحصيل السعادة في الدنيا و الآخرة، «والمتكلمون إنما دعاهم إلى ذلك كلام أهل الإلحاد في معارضات العقائد السلفية بالبدع النظرية فاحتاجوا إلى الرد عليهم من جنس معارضاتهم و استدعى ذلك الحجج النظرية و محاذاة العقائد السلفية بها.».4

---

1. رواه مسلم في كتاب الإيمان.

2. ابن خلدون: المرجع السابق، ص 461 – 462.

3 - انظر المقدمة،ص466 و ص496.

4 -المرج نفسه، ص496.

و عليه كان علم الكلام هو محور ذلك الاجتماع و التعاون بين العلوم.

*و بالتالي نستنتج **ثالثا**:أن الكلام عنده لم يختص لا في مقام التعريف ولا في مقام التحقق بالقضايا الوصفية الواقعية المهمة دون سواها، وإنما شمل موضوع العلم على جميع المعارف والقضايا الدينية.

وفي مقام التحقق بين لنا ابن خلدون في تأريخه ودراسته للأفكار الكلامية أن المتكلمين خاضوا في جميع المسائل ذات العلاقة بالتعاليم الإسلامية و لم يعب عليهم ذلك كفيلسوف دين، فقد بحثوا خلال المراحل المختلفة لعلم الكلام، ولأسباب متفاوتة، القضايا الدينية، بغض النظر عن كونها واقعية وصفية، أو قيميّة، نظرية أو عملية، مهمّة أو غير مهمّة. وبذلك دُرِست طوال الحقب المتلاحقة لعلم الكلام الإسلامي مسائل متنوعة مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والشفاعة، والبداء، والفلاح، والسعادة والشقاء الخالد بالنسبة للفاسقين، والآجال، والآلام، وفوائد البعثة، والحسن والقبح، والتكليف وايجابياته، وضرورة النبوة و الرسالة للعمران البشري، وصلاحية الشريعة الإسلامية للبشرية... الخ.

بل يجعل ابن خلدون تحقيق تعاليم الدين الإسلامي من أهم الوظائف الوجودية للإنسان و مقاصد العمران البشري و غاية العلوم وبالتالي أحد أسباب نشأتها وحدتها فيقول مبينا هذه الحقيقة: « إنما تميز(الإنسان) عنها(الحيوانات) بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه و التعاون عليه بأبناء جنسه و الاجتماع المهيّء لذلك التعاون و قبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى و العمل به واتباع صلاح أُخراه فهو مفكر في ذلك كله دائما لا يفتر عن الفكر فيه طرفة عين بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر وعن هذا الفكر تنشأ العلوم و ما قدمناه

من الصنائع»1 و قبول الإنسان ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى و العمل به واتباع صلاح أُخراه لتحصيل السعادة، يقتضي معرفة حقيقة الوحي و النبوة واليوم الآخر وسائر العقائد الإيمانية و إثباتها لتحقيق الإيمان و الاتصاف، والعلم الذي به يتم تحصيل العقائد الإيمانية و الدفاع عن تعاليم الدين الإسلامي و العمل بها هو علم الكلام.

*ومعنى ذلك **رابعا** أن لعلم الكلام بعدا اجتماعيا واقعيا، وهو ما حرص على إظهاره أبو الوليد ابن رشد (ت 595هـ/1198م) في مقدمة كتابه مناهج الأدلة2 .

*ولو أمعنا النظر **خامسا** في كلام ابن خلدون لوجدناه تفصيلا لما جمعه الفارابي حين ضم علم النفس عنده إلى علم العقيدة وعلم الفقه، فالتصديق (أو الإيمان أو الآراء) هو من حديث النفس،والسلوك (العمل، أو الأفعال) هو صفة تتكيف بها النفس، ومن ثم يعدّان صورتا العملية النفسية في حياة الإنسان.

وبالتالي يتغيا علم النفس عند الفارابي وابن خلدون عبر علم الكلام وعلم الفقه وسائل العلوم النقلية والعقلية تقويم الإنسان وحفظه من الانحراف تصورا وسلوكا لتحقيق مصالحه المطابقة لمقاصد الشرع، ولا يتم ذلك إلاً بتحقيق الانسجام الوجودي والمعرفي بين الإنسان والكون كما عبر عنه القرآن الكريم وبيَّنته مثلا سورة الشمس وعبر عنه العلماء المسلمون التأصيليون في تصنيفهم للعلوم.

قال الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا، وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا، وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا، وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا، كَذَّبَتْ ثَمُودُ

---

1 -المرجع نفسه، ص429.

2 . أبو الوليد ابن رشد: الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، ص 99 – 100.

بِطَغْوَاهَا، إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا، فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا، وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾1 .

فقد عرضت السورة الانسجام الكوني ثم ما يجب أن تكون عليه النفس الإنسانية من الانسجام اقتداء بالكون ثم عرضت لعاقبة عدم تحقيق الإنسان للتوافق بينه وبين الكون الذي هو مضمون دعوة الرسل وغاية بعثتهم والمتمثل في تحقيق التوحيد والذي عبر عنه ابن رشد بموافقة الموجودات لوجود الإنسان2 ، ولا يتسنى ذلك إلاَّ بتحصيل العلم والتحقيق بصفته أي تحقيق عقيدة التوحيد إيمانا وعملا، أو تصورا وسلوكا، ومن ثم التمكين للإنسان المؤمن في هذه الدنيا والفوز برضى الله تعالى في الدنيا والآخرة، وهو ما عبر عنه الفارابي وابن خلدون بـ «تحصيل السعادة»، وأكده الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾3 . فبالإيمان وعمل الصالحات تتحقق العبودية لله تعالى وحده، وهي منهج تحقيق الغاية من وجود الإنسان، الاستخلاف، كما بينته الآية السابقة، وكما بينه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾4 .

فلا تفريق بين العلوم عامة والعلوم الإسلامية خاصة ولا فصل بينها في حقيقتها إلاَّ لغاية تعليمية تربوية منهجية، لوحدة هدفها وهو تحقيق توحيد العبودية، ومن بين هذه

---

1 . سورة الشمس: 1 . 15.

2 . ابن رشد: المرجع السابق، ص 118.

3 . سورة النور: 55.

4 . سورة الذاريات: 50.

العلوم أساسا علم العقيدة أو علم الكلام وعلم الفقه حيث يقوم علم الكلام بالدفاع عنها جميعا.

ولقد جمع وحيد الدين خان في تعريفه لعلم العقيدة ذينك المظهرين، (الصيغة الدفاعية لعلم العقيدة، وصلته بسائر العلوم)، إذ يقول: «إنه يهدف إلى إبلاغ حقائق الدين بنفس اللغة والمصطلحات التي يأنس لها المدعو في عصره»1 .

فإبلاغ حقائق الدين وهي العقائد الإيمانية والأحكام الشرعية الثابتة، يكون للمسلمين وللتحصين والتثبيت أو ترقية الإيمان بالأدلة المتجددة، ويكون لغير المسلمين للدعوة وللدفاع ورد الشبهات، وذلك بنفس اللغة والمصطلحات أي العلوم الكونية والإنسانية والاجتماعية ومناهجها التي تتناسب وتتفق وعقلية المخاطبين في عصرهم.

ومن ثم يكون علم الكلام مسايرا لتطور العصر من حيث تطور الواقع الاجتماعي والسياسي وتغيره ومن حيث تطور العلوم ومناهجها الدراسية في لذلك الواقع.

فبتتبعه هذا للوسائل والمناهج المناسبة والخطاب الملائم للمدعو لمعالجة واقعه، كما يتتبع ويتقصى نوازل مجتمعه (المدعو) المستحدثة لمعالجة ومقاومة الآفات الاجتماعية، كان علم الكلام علما واقعيا، ذا جانب عملي ومنهج تطبيقي، يهدف إلى تحقيق توحيد الألوهية الذي يتضمن توحيد الربوبية، بتنزيل الأحكام العقائدية في واقع الناس.

---

1 . وحيد الدين خان: المرجع السابق، ص 59.

و هذا ما أعطى لموقف ابن خلدون بعدا معاصرا يمكننا استثماره في تطوير علم الكلام اليوم، إذا تجاوزنا مذهبيته التي جعلت علم الكلام خاصا بأهل السنة وحدهم ومذهب الأشعرية و هو اتجاه يتجافى عن الواقع.

ج -قيمة علم الكلام و أهميته عند ابن خلدون:

أن الصبغة الدفاعية التي اصطبغ بها هذا العلم ناتجة وعن واقعيته التي جعلته يلتحم بالواقع، فيدخل في صراع فكري شرس مع أقوى الأعداء وأخطرهم حتى «أن المرء ليكاد يؤخذ من هول تصوره لما كان يمكن أن يحدث لو أن هذا الهجوم العقدي وجد بين المسلمين فراغا والتقى فيهم بالمواقف السلبية»1 .

إذا عرفنا حقيقة وحدَّة ذلك الصراع الفكري بين المسلمين والديانات والثقافات والفلسفات القديمة، ولمسنا شدة الهجمة التي تعرضت لها العقيدة الإسلامية، من قبل هؤلاء الأعداء، وأدركنا هول ما كان سيحدث لو أن علم الكلام لم يظهر أو لم يقم بدوره المنوط به في مواجهة تلك الهجمة العقدية، ووعينا أهمية وخطورة دوره ومهمته في المحافظة على عقائد المسلمين والدفاع عن الدين الإسلامي؛ إذا عرفنا وأدركنا ولمسنا كل ذلك، لا بد أن نفهم ونعي قضيتين أساسيتين:

الأولى: أنه مهما يكن القول في آثار هذا العلم السلبية التي تكاد لا تمحي في إحداث المذاهب وترسيخ التفرقة، وإثارة الشبهات والجدل الكريه، وانفصال العقيدة عن واقع المسلمين، وما أدى إليه من عدم كفاية هذا العلم سبيلا إلى الإيمان واليقين، والتي ترجع في أغلبها إلى الانحطاط الذي أصاب هذا العلم تأثرا بالانحدار العام الذي أصاب الفكر الإسلامي في العصور المتأخرة، حتى

---

1 . يحي هاشم حسن فرغل: عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام، ص 310.

أن علماء الكلام لم يجدوا لتلك الآثار ردا مقنعا أو إجابة يسهل قبولها1 ، مهما يكن من ذلك كله، فإن قيام علم الكلام بعبء هذا الهدف الجليل . وقد قام به على خير وجه ممكن فيما أعتقده ويعتقده كثير من المفكرين المسلمين يحتم علينا من الناحية الواقعية . إغضاء الطرف عما اضطر إليه من ذلك، في سبيل تمكنه من قيامه بهدفه الدفاعي الأسمى في هذا المجال، الذي لا يمكن لأحد أن ينكره2 .

والثانية: كيف نفسر حكم بعض علماء المسلمين على دور علم العقيدة بالانتهاء، من خلال ما آل إليه من وضع الجمود؟ هل علم العقيدة أو علم الكلام بناه المسلمون الأوائل تلبية لحاجات عصرهم ولم يعد يلبي حاجات من بعدهم، وحاجات عصرنا؟ هل زالت أسباب وأهداف وجوده بزوال التحديات الخارجية والداخلية وانقرض الأعداء ملاحدة ومبتدعة كما يقول ابن خلدون؟ أم أن دوره الدفاعي هو الذي انتهى ويحتاج إلى تجديد دوره ووظيفته في كل عصر، فتكون بذلك دعوة إلى تجديد دوره وليست دعوة إلى انتهائه؟

عندما توقف علم العقيدة بعد القرن السابع عن التقدم والاستمرار وجمد على التجريد والتقليد والاجترار، و«لم يعد كما يقول . محمد عبده . بين الناظرين في كتب السابقين إلاّ تحاور في الألفاظ وتناظر في الأساليب، على أن ذلك في قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور»؛3 رأى ابن خلدون

---

1 . انظر هذه الآثار فيما يذكره محمد عبده في رسالة التوحيد، ص 30 – 31، وأبو حامد الغزالي في إحياء علوم الدين،ج1، ص 70 – 71، وابن رشد، فصل المقال، ص 121 – 122.

2 . يحي هاشم حسن فرغل: عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام، ص 310، وانظر: أبو ريدة، في تاريخ الفلسفة في الإسلام، لدي بور، وعبد المجيد النجار: منهجية الفكر الإسلامي، ومحمد يوسف موسى، مقدمة تحقيق كتاب: الإرشاد للجويني، وطه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 67.

3 . محمد عبده: رسالة التوحيد، ص 31.

أن علم العقيدة قد استنفذ أغراضه وانتهى دوره في الدفاع عن الدين، ولم تعد هناك أية حاجة إليه . كما فهم الدكتور جميل صليبا1 . خاصة وأن الملحدين والمبتدعة قد انقرضوا والأيمة من أهل السنة قد كفونا شأن هؤلاء الملحدين والمبتدعة فيما كتبوا ودونوا، واقتصرت فائدته ودوره على الجانب التعليمي يستهدف تثقيف العقول وشحذ الأذهان وتربيتها على جمع الآراء والمقارنة بينها وشرحها والتعليق عليها، فقال في مقدمة: «وعلى الجملة ينبغي أن يعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم، إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا، والأيمة من أهل السنة قد كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا، والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا، وأما الآن فلم يبق منها إلاّ كلام تنزه الباري عن كثير من إيهاماته وإطلاقه، وقد سئل الجنيد - رحمه الله - عن قوم مر بهم بعض المتكلمين يفيضون فيه، فقال ما هؤلاء فقيل قوم ينزهون الله بالأدلة عن الصفات الحدوث وسماث النقص، فقال: نفي العيب حيث يستحيل العيب عيب، لكن فائدته في آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة، إذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج النظرية على العقائد»2 .

وهذا يعني أن علم العقيدة عند ابن خلدون (علم زمني) مؤقت حيث قال «لهذا العهد» فتنتهي أهميته بانتهاء العصر الذي وجد فيه ويتغير منهجه ودوره بتغير معطيات عصره من حيث المصطلحات والأدلة ووسائل الدعوة والتعليم، فأولا: سكنت غلواء الردود والشبهات بعد أن كانت من أهم بواعث نشأة علم

1 ـ عبد ، وجميل صليبا، تاريخ الفلسفة العربية، ص 630.

2 ـ ابن خلدون: المقدمة، ص 467.

أن علماء الكلام لم يجدوا لتلك الآثار ردا مقنعا أو إجابة يسهل قبولها1 ، مهما يكن من ذلك كله، فإن قيام علم الكلام بعبء هذا الهدف الجليل. وقد قام به على خير وجه ممكن فيما أعتقده ويعتقده كثير من المفكرين المسلمين يحتم علينا من الناحية الواقعية. إغضاء الطرف عما اضطر إليه من ذلك، في سبيل تمكنه من قيامه بهدفه الدفاعي الأسمى في هذا المجال، الذي لا يمكن لأحد أن ينكره2.

والثانية: كيف نفسر حكم بعض علماء المسلمين على دور علم العقيدة بالانتهاء، من خلال ما آل إليه من وضع الجمود؟ هل علم العقيدة أو علم الكلام بناه المسلمون الأوائل تلبية لحاجات عصرهم ولم يعد يلبي حاجات من بعدهم، وحاجات عصرنا؟ هل زالت أسباب وأهداف وجوده بزوال التحديات الخارجية والداخلية وانقرض الأعداء ملاحدة ومبتدعة كما يقول ابن خلدون؟ أم أن دوره الدفاعي هو الذي انتهى ويحتاج إلى تجديد دوره ووظيفته في كل عصر، فتكون بذلك دعوة إلى تجديد دوره وليست دعوة إلى انتهائه؟

عندما توقف علم العقيدة بعد القرن السابع عن التقدم والاستمرار وجمد على التجريد والتقليد والاجترار، و«لم يعد كما يقول. محمد عبده. بين الناظرين في كتب السابقين إلاّ تحاور في الألفاظ وتناظر في الأساليب، على أن ذلك في قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور»3؛ رأى ابن خلدون

1. انظر هذه الآثار فيما يذكره محمد عبده في رسالة التوحيد، ص 30 – 31، وأبو حامد الغزالي في إحياء علوم الدين،ج1، ص 70 – 71، وابن رشد، فصل المقال، ص 121 – 122.

2. يحي هاشم حسن فرغل: عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام، ص 310، وانظر: أبو ريدة، في تاريخ الفلسفة في الإسلام، لدي بور، وعبد المجيد النجار: منهجية الفكر الإسلامي، ومحمد يوسف موسى، مقدمة تحقيق كتاب: الإرشاد للجويني، وطه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 67.

3. محمد عبده: رسالة التوحيد، ص 31.

أن علم العقيدة قد استنفذ أغراضه وانتهى دوره في الدفاع عن الدين، ولم تعد هناك أية حاجة إليه . كما فهم الدكتور جميل صليبا1 . خاصة وأن الملحدين والمبتدعة قد انقرضوا والأيمة من أهل السنة قد كفونا شأن هؤلاء الملحدين والمبتدعة فيما كتبوا ودونوا، واقتصرت فائدته ودوره على الجانب التعليمي يستهدف تثقيف العقول وشحذ الأذهان وتربيتها على جمع الآراء والمقارنة بينها وشرحها والتعليق عليها، فقال في مقدمة: «وعلى الجملة ينبغي أن يعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم، إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا، والأيمة من أهل السنة قد كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا، والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا، وأما الآن فلم يبق منها إلاَّ كلام تنزه الباري عن كثير من إيهاماته وإطلاقه، وقد سئل الجنيد - رحمه الله - عن قوم مر بهم بعض المتكلمين يفيضون فيه، فقال ما هؤلاء فقيل قوم ينزهون الله بالأدلة عن الصفات الحدوث وسماث النقص، فقال: نفي العيب حيث يستحيل العيب عيب، لكن فائدته في آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة، إذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج النظرية على العقائد»2 .

وهذا يعني أن علم العقيدة عند ابن خلدون (علم زمني) مؤقت حيث قال «لهذا العهد» فتنتهي أهميته بانتهاء العصر الذي وجد فيه ويتغير منهجه ودوره بتغير معطيات عصره من حيث المصطلحات والأدلة ووسائل الدعوة والتعليم، فأولا: سكنت غلواء الردود والشبهات بعد أن كانت من أهم بواعث نشأة علم

1 - عبد ، وجميل صليبا، تاريخ الفلسفة العربية، ص 630.

2 - ابن خلدون: المقدمة، ص 467.

الكلام وتطوره، ولم يبق للمبتدعة . وهم المعتزلة والفلاسفة عند ابن خلدون1 . أثر في عهده.

وثانيا: ضعفت الأدلة العقلية وانحرفت فلم تعد تفي بالغرض المطلوب وهو الدفاع عن العقيدة ونصرتها كما بين في تعريفه لهذا العلم، وبالتالي لا يمكن الاعتماد عليها، وبهذا يعني أن علماء عصره لم يرتقوا إلى مستوى الدفاع عن الدين ونصرته بالأدلة العقلية المتجددة المتطورة حسب نوع تحديات عصرهم، وذلك لما أصاب الفكر الإسلامي بصفة عامة والفكر العقدي بصفة خاصة من انحدار وضعف، ولا يعني أن الرد على الخصوم قد انقضى، إذ الواقع الإسلامي لم يخل في أي عصر من تحديات داخلية وخارجية تهدد مرجعيته العقائدية، وإن خفت، وزوال الخصوم أو نقصهم لم يقلل من الرد عليهم، وإنما الذي أصبح أوليا وذا أهمية في عهده . هو تحليل وتقويم العقائد وشرحها، ولم يهتم المتكلمون برفع شكوك المؤمنين وتفنيد اعتراضات الخصوم، حيث أصبحت غاية علم الكلام غاية بيانية شرحية، وأصبح الدفاع عملية ذاتية، إذ يدافع المؤمن عن ذاته حماية وصيانة لإيمانه تجاه كل أذى ممكن، بالتزود من كتب أئمة أهل السنة كما بيّن ابن خلدون أن «فائدته في آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة، إذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج النظرية على عقائدها»2 ، واكتفى المتكلم بالأخذ مما وجده وورثه من أدلة، وتقليد من سبقه بصورة تقديسية، ولم يتعد إلى مستوى تأليف وإنشاء الأدلة والحجج أو تطوير موروثه.

---

1 . راجع عابد الجابري: نحن والتراث، ص 394. وأبو اليزيد العجمي: الفقهاء وبحوث العقيدة الإسلامية.

2 . ابن خلدون: المقدمة، ص 467.

إن ابن خلدون في حقيقة الأمر ـ على ما أعتقد ـ لم يجانب الصواب في كلامه السابق، لأنه أولا مؤرخ و«فيلسوف دين و علم» وليس عالم كلام بالمطلق، فهو في مقام التعريف بعلم الكلام وإبراز أهميته ودوره ومنهجه، ورصد سلبياته وعيوبه التي آل إليها بعد الضعف والانحطاط، ولذا كان موقفه في آخر الفصل انتقادا لهذا العلم بناء على ما وصل إليه من انحراف عن غايته الأصلية التي من أجلها أنشأ، وليست مهمة ابن خلدون تقديم العلاج لهذا العلم، كما فعل المتكلمون كالغزالي وابن رشد ومحمد عبده، وغيرهم، بعد انتقادهم وتقويمهم لعلم الكلام.

فالمتكلم عالم متدين بالضرورة، ينظّم علمه بدوافع دينية من أجل تعريف الدين وتعليمه و الدفاع عنه وتبليغه للناس كما قال ابن خلدون: «موضوع علم الكلام ـ عند أهله ـ إنما هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع، من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية فترفع البدع وتزول الشكوك والشبه عن تلك العقائد»،1 إنه يرمي إلى منح معنىً للمفاهيم و الأفكار وحتى للحياة الدينية، ويجعلها متبلورة مفهومة من قبل اكبر عدد من مخاطبي الوحي. و بالتالي فإن مهمة المتكلم الأساسية توضيح وإثبات وعرض الفكر الديني.

أما فلسفة الدين فهي ((تبيين المفاهيم الفلسفية المختلفة التي يمكن أن تتضمّنها الأديان والمعتقدات الدينية)) وعلى هذا القول تكون فلسفة الدين بمعنى الدفاع الفلسفي عن المعتقدات الدينية، وهي بذلك خليفة الإلهيات الطبيعية في دورها ومفعولها.

أو هي في الواقع حسب التصور الغالب لدى فلاسفة الدين التفكير الفلسفي حول الدين، وهي بذلك تشبه فلسفة العلوم أو فلسفة الفن وما إلى ذلك.

---

1 ـ ابن خلدون: المرجع نفسه، ص 441.

وبالتالي فإن فلسفة الدين بهذا المعنى هي البحث العقلاني في الأديان المختلفة والظواهر الدينية.1

الضوابط في علم الكلام هي ضوابط الوحي. وحسب هذا الملاك ينقسم الفكر البشري الى ثلاثة أصناف: الأفكار المنسجمة مع تعاليم الوحي، والأفكار غير المنسجمة، والأفكار التي لا هي منسجمة ولا هي غير منسجمة. في علم الكلام تسمى الأفكار غير المنسجمة شبهاتٍ، والرد على الشبهات من أبرز مهمّات عالم الكلام، فالمتكلم حينما يواجه الآراء المعارضة لتعاليم الوحي، لا يحق له الموائمة بينهما وبين الوحي، عبر تفريغ الأخير من محتواه أو تفسيره بطريقة مغلوطة، وهو ما قام به ابن خلدون فكان متكلما إلى جانب كونه فيلسوف دين و فيلسوف علم ينظر إلى علم الكلام من خارجه.

وثانيا: إنه لم يلغ علم الكلام ولم يدع أنه استنفذ أغراضه فلم تعد للأمة حاجة فيه بصفة مطلقة، وإنما بيَّن أن أغراضه الدفاعية على المستوى الاجتماعي والجمعي، قد ضعفت، وهي أهمها، وما زالت الحاجة إليه قائمة، والدليل على ذلك وعيه بأهمية هذا العلم ووظيفته الدفاعية وخاصيته الواقعية . كما أشرت في المبحث السابق . وهذا ما جعل ابن خلدون يتميز عن علماء عصره ولا يتأثر بما آل إليه واقعهم الفكري من نزوع تجريدي في مباحث العقيدة2 .

---

1 - هوبلينغ. ((مفاهيم ومسائل فلسفة الدين)). من المقدمة، ترجمة: آيت اللهي، مجلة قبسات، السنة الأولى . العدد2 . شتاء 1997. ص 68 و69، و جاهن هيك. ((فلسفة الدين)). ص 21. نقلا عن أحمد قراملكي: التجديد في علم الكلام، ترجمة: حيدر نجف.ص60.

2 . ابن خلدون المقدمة: ص 60 – 62.

إلاّ أن موقفه المتحيز للأشاعرة1 ، جعله يناقض نفسه ويقف موقفا مزدوجا من علم الكلام، حيث يقف من جهة بعلم الكلام عند حد ما وصل إليه الأشاعرة في صياغة العقيدة، فيكون بذلك علما جامدا غير قابل للتطور والتجديد.

ومن جهة أخرى يعتقد أن علم الكلام (علم زماني) انتهت وظيفته الاستدلالية الدفاعية عندما انتهى تحديات العصر الذي وضعت وحددت فيه، وزال أصحابها الذين وضعوها، أو كانوا سببا في وجودها وهم المعتزلة بالدرجة الأولى، حيث انتهى علم الكلام المعتزلي وحل محله علم الكلام الأشعري، وهو طور تجديدي لعلم الكلام، إلاّ أن هذا التطور توقف عند الأشاعرة في نظره واكتسب صفة القدسية حين اعتبر ككل الأشاعرة مذهبهم وحده المذهب الحق وطريقتهم المثلى الموصلة لمعرفة الحق.

ذلك أنه «عندما يظهر إلى الوجود شيء ما وتنسب إليه أسماء بعض الشخصيات المبجلة، فإن ذلك الشيء يكتسب القدسية على مر الزمن حتى يحين وقت يصبح مجرد التفكير في إصلاح ذلك الشيء أو ترميمه أو تحديثه ذنبا من الذنوب عند الناس المؤمنين»2 ، وهذا ما حدث لعلم الكلام الأشعري عند ابن خلدون في عهده، رغم اعتقاده أن التطور الزمني قد ألغى فائدة علم الكلام بصورته المتدهورة التي وصل إليها.

---

1 - علي الشابي: مباحث في علم الكلام والفلسفة، ص12، والجابري: نحن والتراث، ص 394.

2 - وحيد الدين خان: تجديد علوم الدين، ص 59.

ثانيا: مهمة علم الكلام اليوم

هذه إشارة إلى إمكانية تجدّيد علم الكلام وهي أحد أضلاعه المعرفية ودعوة إلى تجديده كلما فقد أحدها و ما دعا إليه كثير من المفكرين المسلمين المعاصرين.

بناء على ما تقدم من تطور دور علم الكلام ووظيفته وما اقتضاه من مناهج ووسائل من عصر النشأة إلى عصر الضعف والانحطاط، تبيَّن لنا أنه علم زماني مؤقت يبيِّن حقائق الإسلام الدائمة ويشرحها ويثبتها ويدافع عنها يدعوا إليها بمصطلحات ومناهج ووسائل زمانية رائجة في عصر المدعو.

وإذا كانت هذه طبيعته، وكانت وظيفته الأساسية هي المحافظة على المرجعية العقدية للحياة الإسلامية، كان الواقع الإسلامي اليوم يستلزم إحياءه، ومراجعة حقيقية لأضلاعه و أهمها مناهجه ومسائله حتى يلائم تحديات العصر المستجدة، ويستأنف دوره الدفاعي، وما يتضمنه من إثبات وهجوم وترقية للإيمان ودرء للشبهات ودعوة، وهذا الدور الذي أصبح اليوم أكثر ضرورة من أي عهد مضى، وذلك لسببين:

أولهما: يهدد الدين الإسلامي أخطار هائلة يصنعها الأعداء ولكنهم أكثر عداء وأخطرهم وأقواهم سلاحا وأشدهم تمكنا وتمكينا وأكثرهم تحالفا من أي وقت مضى وأوسعهم تنوعا، فمنهم منصّرون، ومستشرقون، وساسة، وعسكريون، وأدباء، وإعلاميون، وملاحدة وكتابيون ووثنيون، ومصارحون، ومداهنون، وأناس غرباء وأناس من بني جلدتنا.

وثانيهما: أن المسلمين تركوا الميدان خاليا لشتى الملل والنحل تنشر الخرافة والبدع وتعلي راية الباطل حتى كادت الدعوة الإسلامية تعلن إفلاسها، كما قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله[1] .

ومن ثم أصبح مطلوبا من علم العقيدة اليوم القيام بمهمتين عظيمتين وخطيرتين: أولهما: معالجة المشاكل التي تحدث في الأمة المتعلقة بالأسس العقدية العامة، وما تقتضيه من انعكاسات سلوكية في الواقع، وثانيهما: اقتراح حلول للمشاكل التي تعاني منها الإنسانية، أي تقديم الدليل الإسلامي لحلولهم الباطلة ومحاولاتهم الفاشلة في إنقاذ الإنسانية.

أ. معالجة مشاكل الواقع الإسلامي

إن واقع العالم الإسلامي يموج بمشاكل عدة ومتنوعة ترجع للخلل الذي أصاب العقيدة الإسلامية تصورا وسلوكا، حيث ما زال يسود المجتمع منذ عصر الانحطاط المفهوم السلبي الإرجائي للإيمان ليقصره على التصديق القلبي دون العمل، ممّا أدى إلى الانفصال بين الفكر العقدي وبين المشاكل العقدية الواقعية في المجتمع، فمظاهر السلوك المختلفة لم تعد مندفعة في تلقائية ووضوح من مرجعيتها العقدية، وغدت حقائق العقيدة كالإيمان بالله والرسول ﷺ واليوم الآخر . تشبه أن تكون تصديقات ذهنية غايتها في ذاتها، إذ ضعف الشعور بغايتها السلوكية.

و من بين هذه المشاكل العقدية، التواكل، ومظاهر الشرك، وأفكار الإلحاد . ممّا ترتب عنه مشاكل اجتماعية كالتقليد الأعمى والجهل والخمول، والتقاعس،

1-محمد الغزالي:«فلنجتهد في ترشيد صحوتنا المعاصرة حتى تؤتي جناها»،في مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي،ص 145.

وانتشار الفسوق والمجون، وظاهرة الإرهاب، وتعطيل تطبيق الشريعة الإسلامية بحجة التقدم العلمي والعلمانية، وتطور الأفكار والأخلاق.

وعليه لا يجب علينا اليوم الاكتفاء بما نحن عليه، وما هو سائد في مؤسساتنا والتربوية والتعليمية والإعلامية، بتوجيه فكر الأمة العقدي وجهة تعليمية تستهدف شحذ الأذهان وملئها وتربيتها بجميع الآراء والمقارنة بينها والتعليق عليها، للانتهاء إلى اتجاه أو مذهب أحادي، بل علينا النزول للواقع ورصد مشكلات المجتمع العقدية والتحديات العملية.

وذلك حتى نصقل القلوب ونطهرها فتصفوا الفطرة ويوقض الضمير وينتبه المؤمن والأمة كلها وكل إنسان في هذا الوجود إلى عظم الذنب المرتكب في حق الله تعالى والدين والأمة والبشرية من جراء الغفلة والتقليد: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾[1] ، فتهب الأمة لأداء وظيفتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تقاعست عنهما. فتصبح بذلك مهمة علم العقيدة وإيقاد وهج العقيدة وفاعليتها في نفوس الناس.

ب- اقتراح حلول للمشاكل التي تعاني منها الإنسانية

من المهام التي يضطلع بها علم العقيدة اليوم والتي يجب أن يستعيدها هي المساهمة في بناء الحضارة الإنسانية المعاصرة إلاّ أنه لا ينبغي عليه الدفاع والهجوم فحسب بل اقتراح حلول إسلامية من منبع الوحي للمشاكل التي تعاني منها الإنسانية اليوم لإنقاذها من الدمار الذي يهددها في الدنيا والعذاب الذي

---

1 . سورة الأعراف: 172 – 173.

ينتظرها في الآخرة لأن الإسلام يقدم حلولا وجودية أبادية، أي تتعلق بالوجود في الدنيا والآخرة لتحقيق السعادة في الدارين.

وهي مشاكل مترابطة متشبعة لا تنفك عن بعضها البعض شاملة لكل مناحي الحياة، كمرض فقدان المناعة (السيدا) وأمراض الحساسية، ومخاطر الاستعمال السلبي للعلم ونتائجه المتمثلة في التلوث البيئي ونتائجه التدميرية المختلفة، والحروب المدمرة، والأزمات الاجتماعية والاقتصادية، كظواهر الفقر، والبطالة، والإدمان، وارتفاع نسبة الإجرام والانتحار والعزوف عن الزواج في مقابل الشذوذ الجنسي والعلاقات غير الشرعية بين الذكر والأنثى، والتفكك الأسري، وإهدار كرامة الإنسان وحقوقه.

وهذه المهمة تقتضي من علم العقيدة اليوم أن يكتشف ويكشف نظريات الإسلام في الاقتصاد والسياسة والمجتمع والتاريخ مبيّنا أصولها العقدية وأبعادها المقاصدية وتنزيلاتها الواقعية وأهدافها الإنسانية، في ضوء التطور العلمي المعاصر، حتى يعيد للإنسان إنسانيته وكرامته ويحقق للمجتمعات وحدتها واستقرارها في ظل عالمية الإسلام وعولمته التي تجمع البشرية في وحدة متنوعة تنوع لغة أو ثقافة أو عقيدة كما كان يعيش أهل الذمة في ظل الحضارة الإسلامية ينعمون بعلمها وعدلها وأمنها.

قال الحق تبارك وتعالى يعد المؤمنين بذلك ووعده حق:﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾1 .

1 - سورة النور: 55.

ولا يتحقق ذلك إلاّ بالتعارف والتعاون مع الغير:﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾1 .

والذي أملى على المسلمين الأوائل هذه المهمة التي اضطلع بها علم العقيدة والتي ينبغي أن يستعيدها اليوم هو ثلاث خصائص ودواعي حبى بها الله تبارك وتعالى المسلمين وكلفهم بها هي: الصبغة، والشهادة، والوسطية، المتضمنة في قوله تعالى:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ **وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ○، فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا **وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ** فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، **صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً** وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾2 .

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ **اجْتَبَاكُمْ** وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ **الْمُسْلِمِينَ** مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا **شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ** هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾3 .

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾4 .

---

1 - سورة الحجرات:13.
2 - سورة البقرة:136-138.
3 - سورة الحج:78.
4 - سورة البقرة:143.

الخاتمة:

تميز علم الكلام عند ابن خلدون بشمولية كبيرة تحددت عنده أهم الأضلاع المعرفية لعلم الكلام بتفرد خاص و هي كما بينا موضوعه و مسائله و غايته ووظائفه ومنهجه، ذو صبغة واقعي ومنهجي تطبيقي و غاية دفاعية معرفية وبعد زمني متجدد به تتحقق سعاد الإنسان ويتطور العمران البشري.

و هو ما يمكننا من استثمار الهندسة المعرفية لعلم الكلام الخلدوني وتوظيفها في النهوض بعلم الكلام اليوم و تجديده.

